ـأ أول جريدة في **نشأة الصحافة في العراق وتطورها : الصحافة في العهد العثماني**

شهد العراق ميلاد صحافته على يد الوالي (مدحت باشا) الذي أنشد العراق المسماة (زوراء) عام ١٨٦٩ لا لغرض ثقافي، وإنما لنشر آرائه الإصلاحية و

(الفرمانات السلطانية). وإحقاقاً للحق أنها نبهت الشعب إلى أن هناك صحافة وأوامر، وهناك شكاوى فضلاً عن الأخبار الأخرى. وقد استمرت في الصدور مايقرب على تسع وأربعين عاماً إلى أن احتل الجيش البريطاني مدينة بغداد سنة ١٩١٧ إذ توارت عن الأنظار وبلغ مجموع اصداراتها (٢٦٠٧) أعداد .

وقد صدرت (زوراء) في ١٥ حزيران ١٨٦٩ بمبادرة من مدحت باشا وقد كان لها مراسلين في بعض مناطق العراق المهمة، كما كانت (الزوراء) تفتح صدرها لرسائل المواطنين وتعرض مشاكلهم الأمر الذي يدل على انتشارها بين مثقفي ذلك العصر، وإنها في كثير من الأحيان كانت تحدث صدى بين قرائها نتيجة فكرة عابرة أو خبر مؤثر. وقد تناولت (الزوراء) موضوعات هامة وعالجت مشاكل ملحة يبدو إنها كانت تشغل بال الكثيرين ممن يحسون بوطأة الجهل وتفشي الأمية في الولاية .

ويمكننا الحديث عن الصحافة في العهد العثماني من خلال ثلاث صحف رسمية صدرت في هذا العهد مثلت الصحافة العراقية وكما ياتي :

١. جريدة الزوراء:

يعدُّ (مدحت باشا) أول من وضع الحجر الأساس للصحافة العراقية بتأسيسه جريدته الرسمية الاولى (زوراء) في ١٥ حزيران ١٨٦٩، والتي سميت بعد ذلك (الزوراء) بعد ان كان العراق محروماً من الصحافة. ويذكر ان السلطنة العثمانية عرفت الصحافة عام ١٨٣١ عندما اصدر السلطان محمود أمره بتأسيس جريدة (تقويم وقائع) التركية، فكانت الجريدة الوحيدة التي تصل العراق وكان العراقيون يعرفون التركية قراءة وكتابة أكثر من لغتهم العربية لأنها لغة الدولة الرسمية ولغة التعلم. أما الجرائد العربية فكانت معدومة آنذاك ولعل جريدة (الجوائب) لأحمد فارس الشدياق، التي ظهرت في الأستانة عام ١٨٦٠ أكثرها انتشاراً في العراق والتي شاع تداولها بين شريحة المثقفين العراقيين .

وكان الوالي حريصاً على الاستفادة القصوى من المطبعة فصحب لها معه من أسطنبول الكادر الفني والصحفي معاً، فكان بينهم مدير المطبعة وصحفي ومهندس لصيانة المطبعة. أما ايرادات المطبعة والصحيفة فكان يعتمد على ما يباع من الصحيفة بصورة رئيسية، وأجور طبع المطبوعات لدوائر الولاية ونشر الاعلانات. كما استورد مدحت باشا نتيجة لزيادة الحاجة الى المطبوعات مطبعة جديدة تدار بماكنة كبيرة تتحرك بوساطة البخار وماكنة أخرى مخصصة للطبع بالحروف فقط تطبع وجهي الورقة دفعة واحدة. وساعدت هذه المطبعة على أصدار الجريدة في عامها الثاني مرتين في الاسبوع يومي السبت والثلاثاء وباللغتين العربية والتركية أيضاً. واستمرت تصدر باللغتين عدا المدة المحصورة ما بين (تموز ١٩٠٨ ـــ تموز ١٩١٣) التي صدرت خلالها بالتركية فقط. وقد صدرت جريدة (زوراء) باربع صفحات، صفحتان باللغة العربية، وصفحتان باللغة التركية وبالحجم المتوسط، وكان قياس الصفحة (٤٣سم× ٢٧سم)، وتحتوي على ثلاثة أعمدة طويلة ولم يشاهد عملاً من أعمال (الزنكوغراف) غير (زوراء) اسم الجريدة كما لم نشاهد فيها الصور أو خطاً او حروفاً متباينة الأشكال والأحجام أو أعمالاً فنية أخرى. وتعد مقدمة العدد الأول من الجريدة بمثابة المفتاح الأساس لدراسة تاريخها. وفي المقدمة توضيح لأهدافها وأسباب صدورها وفلسفتها المستقبلية، فضلاً عن أنها عكست أبعاد مشروع الوالي مدحت باشا لتحديث العراق وإصلاح اوضاعه العامة.

ولقد اعتادت الزوراء نشر نصوص الفرامين العثمانية (المراسيم) التي يعين بموجبها ولاة بغداد واعتادت كذلك نشر خطبهم عند تسلمهم الولاية ومتابعة اخبار الوالي وتنقلاته وأسفاره. وكان لتأثير مدحت باشا بأفكار الثورة الفرنسية وتحمسه للحرية والمساواة، اثر كبير في أن تعكس الجريدة قدرة المثقفين العراقيين آنذاك لنقد حكامهم وأوضاعهم العامة على صفحات الجريدة وقد ظهر ذلك واضحاً في أعدادها الأولى خاصة.

وتعد جريدة (زوراء) مصدراً رئيساً لتاريخ العراق الحديث. إذ كانت تنشر اخبار شؤون ولاية بغداد واحوالها، ونصوص القوانين والأوامر السلطانية ونصوص المعاهدات واخبار حركات العشائر وتتابع علاقات العراق بالدول المجاورة. وهي، لم تهمل السياسة الدولية ومايحدث من تغيرات. ويلاحظ على غالبية اعداد جريدة (زوراء) ان اخبارها المحلية كانت تكتب تحت عنوان (مواد خصوصية) وبعض الأخبار تحمل عناوين بسيطة جداً.

كانت (الزوراء) جزءً من آلية الادارة العثمانية، فهي تابعة إدارياً ومالياً لادارة الولاية وكان العاملون فيها من الجهاز الوظيفي الحكومي، ومن ثمَّ كانت تعبر عن سياسة الولاية، فلم يظهر فيها ما يتعارض مع السياسة العثمانية لأن (الزوراء) لم تكن صحيفة رأي، ولم تنشر افكاراً لاتنسجم مع سياسة الادارة الحاكمة. وقد اهتمت بأخبار تطوير أوضاع ولاية بغداد والذي ظهر ذلك من خلال تشكيل لجان خاصة بأمر من السلطة المركزية للبحث في سبل وأسباب الأعمار الذي كانت تحتاج إليه بغداد، على حد تعبير الجريدة آنذاك. وكثيراً ما اهتمت بمتابعة مظاهر التأخر الذي كانت تعانيه بغداد، فعلى سبيل المثال أشارت إلى قدم وتخلف وسائل الإنتاج المستخدمة آنذاك ولجأت إلى أسلوب التهكم والسخرية عند تناولها هذه المسائل. واهتمت (الزوراء) بوسائل المواصلات وخطوط التلغراف والسفن التجارية (الوابورات) التي كانت

تمخر عباب نهري دجلة والفرات. وانصرفت الجريدة لمتابعة أخبار مشروع سكتي حديد بغداد والحجاز. وناشدت المسؤولين والأهالي على اقتناء المخترعات الحديثة. واستأثرت المشاكل الاجتماعية باهتمام الزوراء وتابعت أخبار القضاء والمحاكم والضرائب والبلدية ودعت إلى ضرورة تغطية أحياء بغداد بأنابيب المياه وتبليط الشوارع العامة وكرست (الزوراء) العديد من صفحاتها لشؤون الصحة ودعوة الأهالي إلى اتخاذ الاحتياجات أثناء انتشار الأمراض والأوبئة. وتابعت الزوراء أنباء احتجاج وجهاء ومثقفي بغداد على قرار غلق مدرسة (كلية) الحقوق سنة ١٩١٢، هذه الكلية التي فتحت سنة ١٩٠٨ بحجة أنها أصبحت بؤرة للفكر القومي العربي المضاد للدولة العثمانية.

وفي الواقع كانت معظم مواد الجريدة مكرسة لنشر الانظمة والقوانين والمراسيم والاعلانات الرسمية والاهلية، لذلك كان ماهو مخصص لغير ذلك محدود المساحة والاهمية. وتفيدنا (الزوراء) في متابعة أخبار حركة التنقيب عن الآثار، وتكشف المعلومات التي نشرتها جانبا من صراع القوى الاستعمارية الأوروبية على آثار العراق والنهب الذي تعرضت له هذه الآثار. وكانت تعدُّ مصدراً لمعرفة معلومات طيبة عن الأبنية والمؤسسات والمنشات المعمارية المدنية والعسكرية التي كانت موجودة في بغداد آنذاك.

وهكذا فإن (الزوراء) تعد مصدراً لتاريخ بغداد والعراق كله خلال الفترة الواقعة بين ١٨٦٩ و١٩١٧. كان أسلوب تحرير (الزوراء) في هذا الدور انعكاساً للأسلوب السائد في ذلك العهد العثماني، فتميز بالركاكة والابتعاد عن المقاييس الأدبية والجنوح إلى زخرف القول بصورة لا يقبلها الذوق، وكان من مظاهر تردي تلك الأساليب استعمال السجع الممل والبديع المخل والبيان الذي لا طائلة فيه. وكانت الصفحات الأولى من هذه الصحيفة تبدأ بالدعاء للسلطان . إن الركاكة الظاهرة في أسلوب جريدة (الزوراء) واختلاط العامية بالفصحى وتداخلها تداخلاً غريباً وصل الى حد يتعذر معه فهم العديد من مادتها، ويوحي بوجود قلق فكري يمنع صاحبه من الإبانة والوضوح بل يصل الحال الى تعذر فهم ما ورد في جريدة (الزوراء) مهما أوتي القارئ من الدقة والصبر. وكان النص العربي في جريدة (الزوراء) ترجمة حرفية للنص التركي، وفي فترة لاحقة احتاجت الجريدة الى تطوير أسلوب التحرير فيها فادخلت العنصر العربي وكان من بينهم ادباء يمتلكون لغة عربية سليمة، إذ ساهم في تحرير (الزوراء) عدد من الأدباء والمثقفين العراقيين وقسم منهم تولى ادراتها أو تحريرها نذكر من هؤلاء احمد عزت محمود العمري الموصلي واحمد الشاوي وجميل صدقي الزهاوي وطه الشواف ومحمود شكري الالوسي وفهمي المدرس ومعروف الرصافي. وكانت جريدة (الزوراء) تتابع من خلال أعدادها حركات العشائر ونصوص المعاهدات والأوامر السلطانية وعلاقات العراق بالدول المجاورة، ولم تهمل السياسة الدولية. وكانت تنقل بعض أخبارها من صحف اسطنبول وباريس ولندن، كما اعتمدت في معظم أخبارها الخارجية على برقيات وكالات الأنباء (الاجانسي) الأجنبية والفرنسية منها على وجه الخصوص، كذلك كان هناك تطور فني للطباعة تضمن توفير عنصر وطني متخصص إذ أن الكادر الفني الذي جلبه الوالي مدحت باشا لم يعد يفي بالحاجة ولهذا تم تدريب ثلاثين طالباً من مدرسة الصنائع لترتيب الحروف في المطبعة. وقد استمرت جريدة (الزوراء) بالصدور المنتظم لحين انتهاء الحكم

العثماني لما يقرب من ٤٩ عاماً، وبلغ عدد ما صدر من جريدة الزوراء ابتداءً من عددها الأول في ١٥ حزيران ١٨٦٩ حتى عددها الأخير في ١٣ آذار ١٩١٧ (٢٦٠٧) أعداد. وتُعدّ (الزوراء) مصدراً تاريخياً هاماً لتقييم الأوضاع السياسية والاجتماعية السائدة في العراق خلال تلك الفترة، وكانت تباع بخمسين بارة والاشتراك السنوي ٥٥ قرشاً. وكانت (مكتبة المتحف) تضم ثلاثة مجلدات لجريدة (الزوراء) إضافة إلى وجود نسخ عديدة منها محفوظة حالياً في المكتبة الوطنية ببغداد.

٢. جريدة موصل:

تعد الصحيفة الثانية الصادرة في العراق بعد جريدة (زوراء) في بغداد. وقد صدر العدد الأول منها في الموصل بتاريخ ٢٥ حزيران ١٨٨٥ بأربع صفحات، بالحجم المتوسط مقاس (٤٣×٢٧) سم وكانت كل صفحة تتألف من ثلاثة أعمدة طويلة. وكانت الصفحتان الأولى والثانية بالتركية، والثالثة والرابعة بالعربية. وكانت إدارة الجريدة في شقة خاصة في مبنى الحكومة بمدينة الموصل. وتعدّ جريدة (موصل) الذي تحول اسمها فيما بعد الى (الموصل) أول جريدة تصدر في المدينة كما تعد الجريدة الرسمية للولاية وتصدر وتنشر مرة كل أسبوع، وكان يوم الخميس موعداً لصدورها، وقد استمرت بالصدور حتى استكمال احتلال القوات البريطانية لمدينة الموصل عام ١٩١٨.

وقد ساعد على اصدار صحيفة (موصل) في ولاية الموصل خلال العهد العثماني وجود حركة التعليم وكانت بداياتها في الموصل في العهد العثماني تتركز في ما يعرف بـ (الكتاتيب)، معتمدة على قيام شيخ يمتلك معلومات وافية عن الجوانب الشرعية، فيقوم بتدريسها للتلاميذ، إذ يبدأ معهم بتعليمهم القراءة والكتابة، تمهيدا لإعطائهم بعض المعلومات الدينية الاسلامية، فضلاً عن تعليمهم مسائل حسابية مبسطة، ويعرف هذا الشيخ في العرف الموصلي باسم (الملا). أما فيما يتعلق في مكان التعليم فكان عبارة عن غرفة ملحقة في أحد المساجد او في بيت (الملا) نفسه، دون ان يتلقى دعماً من جهة رسمية. وتطور نظام التعليم في مدينة الموصل خطوة أخرى تمثلت في إنشاء المدارس الدينية والتي كانت ملحقة بالمساجد او الجوامع او في دفع أجور معينة، إذ تبرع بعض وجهاء وأعيان المدينة وأثريائها في انشاء العديد منها.

كانت جريدة (الموصل)، من الصحف الرسمية. لذا تميزت مثل نظيرتها جريدة (الزوراء) بأنها صحيفة مداهنة وتملق. ففي المرحلة الأولى لم تكن تنشر سوى مايطيب للسلطان وولاته من ألفاظ التفخيم على الرغم من ظلمهم وسوء إدارتهم. ولم تكن الصحافة في هذه الفترة سوى لسان السلطان وأعوانه، أما آمال الشعب وطموحاته فليس لها نصيب من اهتمامها.

وعبرت جريدة (الموصل) عن وجهة نظر الحكومة العثمانية أي إنها كانت جريدة رسمية، لكن هذا لم يمنع المشرفين عليها من متابعة الأخبار والحوادث في الولاية خاصة وأنها خصصت باباً أسمته (أحداث الولاية)، تناولت فيه أخبار ولاية الموصل السياسية والاقتصادية والعسكرية. كما اعتادت على نشر خطب الجمعة التي تلقى في جوامع الموصل والتي تتضمن التأييد والدعاء للسلطان . ولم تهمل الأخبار الخارجية وقدمت الكثير من النصائح الزراعية

والصحية للناس. وتميزت عن (الزوراء) في أن أسلوبها كان أدبياً واضحاً لا أثر للركاكة التي زخرت بها صفحات (الزوراء) ويمكن أن نعزو سبب ذلك إلى أن معظم المشرفين على جريدة موصل كانوا من الأدباء والكتاب الموصليين العرب. وعلى الرغم من قول بعضهم أن جريدة الموصل لم يكن لها اثر يذكر على الحياة الفكرية في المدينة لانتشار الجهل والأمية بين الناس إلا أن دراستنا لتلك الجريدة تبين أنها قامت بدورها في توعية الأهالي صحياً واجتماعياً وفكرياً، وقد ازداد ذلك على نحو اكبر في العهد الدستوري العثماني وما بعده . كذلك تميزت جريدة (الموصل) بطابعها الاخباري، إذ اقتصرت على نشر أخبار مختلف شؤون الولاية اضافة الى الاخبار الرسمية والقوانين والبيانات والانظمة وأوامر الحكومة واعلاناتها، ولم تهمل الاخبار الخارجية التي كانت ترد من العاصمة التركية. كما اعتادت على نشر خطب الجمعة التي تلقى في جوامع الموصل التي تتضمن التأييد والدعاء للسلطان .

٣. جريدة البصرة:

وهي الجريدة الرسمية الثالثة التي صدرت خلال الحكم العثماني، وقد أصدرتها السلطات العثمانية باللغتين العربية والتركية، وبأربع صفحات وذلك في عهد الوالي هدايت باشا، وقد صدر عددها الأول في ٢٦ ايار ١٨٨٩ وتولى محمد علي أفندي باش كاتب الأملاك السنية مسؤولية تحرير الجريدة. وقد اهتمت هذه الجريدة شأنها شأن شقيقتيها (الزوراء) و(الموصل) بنشر أوامر الباب العالي والفرمانات والبيانات الرسمية فضلاً عن نشرها أخبار وحوادث الولاية. وقد توقفت عن الصدور عام ١٨٩٥ ثم عادت الى الصدور بعد ذلك بزمن قصير، وكانت الصفة الغالبة في مقالاتها مدحها للسلطان العثماني، وقد غلب على أسلوبها الركاكة والتكلف والسجع، ومما يلحظ على مقالاتها كثرة الأخطاء اللغوية وسيادة الكلمات غير العربية، كما امتازت أخبارها بعدم مقدرة كاتبها على إيجاز المعنى الذي يريد إبلاغه، ولم تصدر الجريدة بمقال افتتاحي، ولم يذكر شيء عن محرريها، وقد استمرت في الصدور حتى الاحتلال البريطاني للبصرة في ١٢ تشرين الثاني ١٩١٤ اذ احتجبت عن الصدور بعدما بلغت من العمر قرابة ربع قرن .

المصدر : أ.م.د سعد سلمان المشهداني : تاريخ وسائل الاعلام في العراق ، ط ٢ ، عمان ، دار أسامة للنشر والتوزيع ، ٢٠١٤ .